تمثيلية اجتماعية

الوطن . . .

تقع حوادث هذه المسرحية فى بلجيكا فى الوقت الذى كانت فيه أسبانيا محتلها بجنودها وتذيق أهلها من صنوف العذيب والاضطهاد ألوانا على أيدى محاكم التفتيش ، فأهلها فى رعب دائم . يقبض على الواحد منهم لمجرد الاشتباه أو لوشاية كذوب . وهكذا كان الحال مع المركيز دولاتريموى والكونت دوريزور ، فالأول أحد أمناء الملك شارل ملك فرنسا وقع أسيرا فى يد الأسبان بينما كان يحارب إلى جانب صديقه الأمير تاسو شقيق أمير أورانج أحكم وأشجع مواطنى بلجيكا ، فباعه الجند إلى الدوق البا الأسبانى حاكم المدينة ، ففرض عليه هذا فدية قدرها مائة ألف جنيه ، طلبها المركيز من أخيه المقيم فى فرنسا ليدفعها للدوق البا ، وقد أذن له الدوق بالتجوّل فى أنحاء بروكسل حتى يدفع الفدية على ألا يتجاوز الحدود ، وفيما هو يتجوّل فى المدينة ليتفرج على حفلات الكرنفال قبض عليه الجند لاشتباههم فى أمره .

أما الثانى فقد كان أحد الزعماء أيام الوصية الحاكمة قبل احتلال الأسبان لبلجيكا ، قبض عليه بتهمة تنحيه عن بروكسل أربعة أيام والمظنون أنه قابل فيها البرنس دورانج الثائر .

يبدأ الفصل الأول حيث تنعقد المحكمة المؤلفة من ضباط الاحتلال وتبدأ فى محاكمة المقبوض عليهم . فهذا يحكم عليه بالشنق لأنه بروتستانتى على خلاف مذهب الأسبان ، وذاك غلام فى الرابعة عشرة من عمره يحكم عليه بالإعدام لأنه لم يرفع قبعته عند مرور الموكب الدينى . وهكذا تستمر المحكمة فى إصدار أحكامها المستبدة وقلما تغير النطق بلفظ "الإعدام" .

ثم يأتى دور الكونت دوريزور ، فيوجه إليه الرئيس الاتهام فينفيه ، ويواجهه بشهادة الشهود فيكذبها ، وأخيرا يستقر الرأى بعد مناقشة عقيمة على أخذ شهادة الضابط المقيم فى بيت الكونت فإذا لم تثبت شهادة الضابط أن الكونت كان فى منزله الليلة الماضية ، فيكون ذلك دليلا على تغيبه عن المنزل ومن ثم يستجوب عن باقى الاتهام . يستسلم الكونت ويتراجع إلى جانب زميله المركز دى لاتريموى ، فيسر إليه أن التهمة ثابتة عليه وأنه لن يعيش أكثر من ربع ساعة حتى يؤدى الضابط شهادته . وقد أراد أن يكتسب هذه الدقائق ليحمله رسالة لزوجته الكونتس دوريزور التى يحبها والتى لا يخاف من الموت

إلا لأنه يحرمه حبها و يفرقه عنها ، وهو لا يعتبر نفسه جبانا إذا أرسل دمعة على سعادته الزائلة ، فيعده المركيز بتبليغ رسالته ، و يكون الضابط اللاجئ بمنزل الكونت قد حضر لتأدية الشهادة . وبعد مناقشة قصيرة يقول إنه واثق من رؤيته للكونت الليلة الماضية ! فيقول له المحقق :

— فكر جيدا . هل رأيت حقا الكونت ريزور ؟

— أجل . . . فقد تبارزت معه . (فيدهش الكونت نفسه بينما الضابط يسترسل قائلا) : هذه الليلة كنت عائدا إلى المنزل وكان الظلام دامسا .. فصعدت السلم متلمسا الدرجات بطرف سيفي . . . ولسوء الحظ برز من الدور الأسفل شخص مسرع من غرفة الكونت تضيء له سيدة . . . فصحت به من يكون . . . فقال لي : ومن أنت حتى تسألني إذا كان يجوز لي أن أخرج من غرفتي . . . فرفعت سيفي في وجهه . . . لكنه انتزعه مني وألقى به أسفل السلم . . . وقد أسفت بعد ذلك على ما بدر مني أسفا شديدا .

يلتفت المحقق إلى الكونت المذهول ليسأل عن صحة القصة ، فيجيبه بشرود إنها صحيحة . فيحكم بالبراءة مع الإنذار . يفرح لذلك المركيز دو لاتريموى الذي لفت بحركاته أنظار المحكمة ، فيسأله عن اسمه فيقوله . بعد برهة . فلا يجرأ أحد على إيذاء أسير الحاكم الذي يساوي مائة ألف جنيه يخرج مع هيئة المحكمة و يظل الكونت والضابط . و بينما الضابط يهم بالخروج يلتفت إليه ريزور قائلا بقلق شديد :

— لقد أنقذت حياتي يا سيدي . . . ولكن ما هي الحقيقة . . . إن شهادتك لم تطابق الواقع .

— انا لم أذكر غير الواقع يا سيدي .

— عفوا يا سيدي . ألا يمكن أن يكون الشراب قد أثر فيك فتخيلت ما قلت ؟

يثور الضابط و يرمي الكونت بأنه يهزأ به و يقول : إنه قد رأى ما أنضى به رأى العين وكأنما هو يسمعه وهو يقول : ادخلي يا سيدتي . . . وحاذري . ثم يقول إن الكونتس أقفلت الباب بعد ذلك بسرعة . ثم رددا ما رددداه . يصمت الكونت فيسأله الضابط عن يده . فيقول له الكونت : وما شأن يدي . فيرد عليه بأنها قد جرحت جرحا عميقا عند ما كان ينتزع منه السيف وأن الكونت صرخ متألما . . . وقد وجد الضابط في الصباح أثر دماء على السيف . ثم يقول وقد فاتني أن أستشهد بهذا في التحقيق ويشير إلى يد الكونت المكسوة بالقفاز . يسكت الكونت أمام هذه الأدلة الصريحة فينبهه الضابط إلى وجوب الإياب إلى المنزل قائلا : لقد انتهى عذابك .

و بعد أن يذهب الضابط يقول الكونت : انتهى عذابي . . . لم ينته عذابي . . . بل لم يبتدأ .

وفى الفصل الثانى تبدو إحدى قاعات منزل الكونت دى ريزور ترى الكونتس الشابة تستقبل الكونت كارلو صديق زوجها الحميم . فتسأله عن جرح يده فيجيبها أنه بسيط لا يلبث أن يلتئم ، فتسأله عن سر اضطرابه فيخبرها أن زوجها قد عاد من سفره ، فتبدى استياءها من هذا الخبر . ويدور الحوار حول علاقتهما الآثمة فيبدى لها كارلو استياءه من علاقتهما فتقول له دولوريس : ولماذا ؟ أى ألم تحمله أنت ؟ "إننى فى سبيل حبك أتعذب فى الدنيا وأهيئ نفسى لعذاب الآخرة" . فيرد عليها بأنه قد ضحى بأعظم وأقدس شىء عنده . . . بشرفه . . . براحة ضميره . . . بعزة نفسه . . . فهو يشعر بالعار تتأجج بين ضلوعه . وقودها احتقاره لنفسه الذى يتعبه أينما كان . ويقول لها إنه وهو أصدق أصدقاء زوجها وأول من يفدى شرفه بحياته . يخونه فى عرضه ويخدعه ويسرقه .

وبينما هم فى هذا الحديث إذ يدخل الخادم ويعلن أن الكونت قد قبض عليه ، فيهم كارلو بالخروج فتسأله الكونتس إلى أين ؟ فيقول لكى يحاول إنقاذ صديقه قبل أن يقتلوه ، فتقول له أتذهب لإنقاذ غريمك ؟ فيرد عليها بأنه ليس غريمه وإنما هو رجل شريف يجب إنقاذه ... ويقوم بواجبه نحوه . تسخر منه قائلة : إذن أنقذه . . . وعد به إلى البيت لكى أخونه غدا معك . . . وأجمل من ذلك أن أخونك معه هذا المساء . فيقول لها : أنت شيطان وإذا بالخادم يدخل معلنا بفرح حضور الكونت .

يدخل الكونت فيقابله كارلو بفرح صادق وتتقدم إليه زوجته مهنئة بفتور فيلاحظ زوجها عليها أنها ترتعد فيسألها السبب فتقول له إنه الأثر ، وتخرج تأمر بإعداد العشاء . يخلو الكونت إلى صديقه فيتفقان على تدبير الخطة المتفق عليها بينهم ، وهو أن يتسلل البرنس دورانج تحت جنح الظلام بعد أن يجتاز السلاسل المنصوبة حول المدينة فيتعهد كارلو بالتحايل على الحاكم لرفعها متحججا بنقل أسلحة لفرقته . ويتواعدان على اللقاء فى المساء ويخرج كارلو وهو يشد على يد صديقه . وبعد برهة تدخل دولوريس فتهنئ زوجها الفرحة ويفاتحها فى أمر مرأى رجل غريب يخرج من غرفتها الليلة الماضية . فتنكر فيصر على اتهامها فيزل لسانها وتنكشف الحقيقة فتعترف مكرهة وتطلب منه أن يقتلها فهى تكرهه وترغم نفسها على قبول مداعباته لها ومجاملته ، فيرد عليها قائلا بأنه لم يكن ينتظر أن يقابل جميله الذى صنعه فيها بالإساءة ، فقد قدم لها قلبه وهى الفتاة اليتيمة للطيمة مع ثروته ومركزه ولقبه وانتشلها من أقذر حى فى المدينة وهى لا تكاد تجد ما تسد به الرمق ، ولا تملك من حطام الدنيا سوى سرير أمها الذى ماتت عليه من البؤس والفاقة . أبعد هذا يستحق منها كل هذا الجحود وهذا الكره ؟ ! وتعترف له وهى شامخة الرأس . فتقول له إنه لم يحبها الحب الكافى ، الحب الذى ترغبه ، فقد وجه كل عاطفته لما يسميه بالوطن ، أما هى فلم تلق منه إلا الإهمال ، فحبه الجنونى لوطنه حرمها الحب والعطف ، وهى ترى أن الوطن الحقيقى عندها هو الحب

فلو كان قد بذل فى سبيل حبها ما بذله فى سبيل وطنه لما وصلا إلى ما هما فيه . فيحاول أن يضبط ما كان تعترف باسم عشيقها فترفض . ولكنه يخبرها أنه سوف يبحث عنه ويقتله ويكفيه أن يعرفه بالجرح الذى أحدثه السيف فى يده ويخرج ولكن تقول : كلا لن تقتله (وتأخذ ردا ها وتخرج) .

وفى الفصل الثالث نحن فى غرفة الدوق ألبا الحاكم الأسبانى لمدينة بروكسل وهو يعطى كل اهتمامه لابنته رفائيل المريضة ولا يهمه فى الدنيا شىء أكثر من إسعادها وإبرائها من علتها . تدخل عليه فيفرح بمرآها ويبدى لها أمله فى شفائها وبينما هو يداعب ابنته إذ يعلن أحد المساعدين حضور قائد فرقة الأعيان الكونت كارلو فينضب لقطع خلوته العائلية عليه ولكن يأمر بإدخاله ، فيلاحظ الحاكم أن الكونت لا يزال يحمل سيفه فيجرده منه لأن فرقته قد ألغيت ويقول له : لماذا أتيت ؟ فيقول كارلو إنه إنما أتى لينفذ أمر الحاكم بجمع أسلحة المدينة وتسليمها له وإلا عوقب بالقتل ، وهو لن يستطيع أن يؤدى ما يطلب منه فينقل ثمانمائة درع وخوذ بينما السلاسل تعترض طريقه ، ولذلك فهو يطلب أن ترفع السلاسل فى الماء من جميع طرق البلدية فيوافق الحاكم أخيرا ويعيد اليه سيفه تحت إلحاح ابنته التى تخبره بأن هذا الضابط قد دفع عنها ذات يوم اعتداء الجمهور عليها فى الطريق . ويعرض عليه أن يلحقه بضباط الحرس الأسبانى فيرفض ويريد سيفه ثانيا الى الحاكم ويقول له انظر سعادتك جيدا الى السيف إنه سلاح قوى يحمى الوطن ويذود عن المواطنين وهو لا ينسل من غمده إلا ليقوم بواجبه المجيد ولكنه يأبى أن يستخدم فى اضطهاد الشعوب وهو لا يطاوعنى على هذا بل يخترق صدرى (ولقى بالسيف عن المائدة) فينضب الحاكم ولكنه يكظم غضبه تحت إلحاح ابنته ويوافق فى النهاية على انزل السلاسل . ويخرج كارلو .

يدخل على الحاكم بعد ذلك دوق وريس الكونتس ريزور وتكون رفائيل قد خرجت وتقول له إنها اكتشفت مؤامرة يدبرها رجل تبغضه وهذا الرجل يبغى قتل عشيقها وقد تبعت هذا الرجل هذا المساء إذ رأته يتسلل ليلا رغم الأوامر العسكرية فوجدته قد اجتمع بعشرين رجلا فى قبو وبين هؤلاء الرجال البرنس دو انج . فيكذبها ولكنها تؤكد له أنها سمعت بأذنها الخطة التى ينوون تنفيذها وهى هجوم البرنس دورانج بستة آلاف رجل مسلحين عند سماعهم دق جرس الكنيسة الكبير ويكون واحد منهم قد احتال على رفع السلاسل . وتفضى اليهم ببعض أسماء المتآمرين ولكنها تطلب من الحاكم أن يعفو عن حبيبها ويقتل الجميع ولكنه يخرج ويغادرها سجينة أشبه بالمجانين .

فى ذلك الوقت يكون المتآمرون قد بدأوا فى تنفيذ خطتهم فى دار البلدية وقد تبادلوا مع سكان المدينة الاشارات علامة الاستعداد . ينفرد كارلو بالكونت ريزور ويعنفان أنفسهما بالتصرف بهيجان يعقبهما للمعركة فيلاحظ ريزور أن كارلو لا يحمل سيفه فيناوله سيفا من على المنضدة فيمد كارلو يده العارية من القفاز ليتناول السيف فيلاحظ ريزور الجرح

فيمسك بيد صاحبه صارخا : ماذا بك ... ما هذا الجرح ... من أين أتاك ... فيرد قائلا : من سلاح أمنته بلا حذر .

— من جندى أسبانى .

— لماذا ؟

— هذه الليلة ... فى بيتى ؟ ... أيها الشقى ... هو أنت ... سارق حبى ... قاتل شرفى ... سأقتلك .

— (وهو يركع أمام صاحبه) أقتلنى إذن ... الموت من يدك أهون من العذاب الذى أنوء به ... أنا شقى ... جبان ... خائن ... نذل ... ألتمس الموت منك جاثيا على ركبتى .

ينزل ريزور سيفه وهو يقول : أيها التعس يا من أخلصت له الحب ... أهكذا تخونى من أجل امرأة ... أنت يا من أحببت ... لم أكن أعتقد إلا فى ثلاثة ... الوطن وهى وأنت ... انظر الآن ماذا تبقى لى وبسببك ... موتك ... ماذا يجدى ... موتك ؟ ... سيشبع انتقامى ... ولكن الوطن الذى يدافع عنه كلانا سيفقدك . أأحرم معركة الليلة من ساعدك القوى فى وقت يقرر فيه مصير الوطن . الوطن فى حاجة اليك ... يا إلهى لا ... لو فعلت أكون مجرما فى حق الوطن مثل إجرامك فى خيانة عرضى ... لا ليس لى الحق فى أن أسلب الوطن شجاعتك كما لم يكن لك الحق فى أن تسلبنى سعادتى .

— إذن فأنت لا تريد .

— قم وخذ هذا السيف وسر الى القتال ... أسرع حيث يدعوك الواجب وحيث يأمرنى واجبى ... وان وجب أن تموت ... فلا تمت مجرما ... مت بكمندى ... مت ميتة الأبطال . ابق وانتقم لى من نفسك ... سلبت منى الشرف فأعد لى الحرية ... أخذت منى امرأة فرد لى الوطن ... سأرى بعدئذ اذا كانت بطولتك كفيلة بغسل جريمتك ؟ إذا كان يجب أن أنسى حقدى عليك باعترافى لك بالجميل .

— سامحنى ... ريزور سأحملك على ذلك .

وبينما هم يتأهبون للمعركة إذ يهجم عليهم العدو خلسة . ويضطرهم الى التسليم بعد نضال أبدى فيه كارلو من البطولة ما يستحق الذكر ويعرض نفسه لاحتمال مسئولية المؤامرة ، ولكن الكونت يقدم نفسه باعتباره من مدبريها . ويحاول الحاكم إرغامهم على الاعتراف بالاشارة المتفق عليها فيرفض الجميع ولكن قارع الأجراس يبدى استعداده للاعتراف فيحذره كارلو . فيرد عليه قائلا : "

لست إلا رجلا مسكينا . أيها السادة . سيفتكون بى .. ولدى امرأتى وأولادى .

فيردّ عليه كارلو قائلا يتوسل ، اذكر أن ثلاثة ملايين روح بين يديك . أنقذ الوطن. ويتوسل اليه مع الكونت ريزور ولكنه يخرج ليدق الأجراس بالطريقة المرسومة تحت ضغط جنود الحاكم . بينما الثوار يبكون من الغيظ والألم .

يدق الجرس ولكن باشارة يفهم منها الأمير ألا تدخل وابتعد عن المدينة ... يفرح الجميع بينما يتميز الحاكم وجنوده من الغيظ فيطلقوا النار على قارع الأجراس ويردونه قتيلا . ثم يأمر الحاكم بنصب المشانق فى الميدان بسرعة لشنق الجميع .

واذا كان الفصل الرابع فنحن فى صالة قصر الدوق البا الحاكم بجوار محكمة الجرائم ، يرى الحاكم وهو يصدر أوامره إلى الجلاد كى يعذب الكونت دى ريزورو يفتن فى تعذيبه حتى يعترف باسم باقى الشركاء . بينما تدخل دولوريس تستنجز الحاكم وعده باطلاق سراح كارلو عشيقها فيرفض ويرميها بالذالة والوقاحة والخيانة لزوجها فتنتهز فرصة دخول ابنة الحاكم وتحصل بفضل توسلات الابنة على جواز سفر للكابتن كارلو إلى مدينة ليل ، ويخرج الحاكم مع ابنته وتهم دولوريس بالخروج لتلحق زوجها آتيا من بعيد فترتعد وتسلك طريقا غير طريقه حتى لا تراه وتخرج بينما يدخل الكونت ريزور بصحبة ضابط ليقوده إلى غرفة التعذيب الرهيبة كى يعترف ولكنه يعلم من الضابط أن صديقه المركيز تريموى قد أعطى الضابط خنجرا يسلمه للكونت اذا احتاجه ... فيشكره الكونت شكرا مضاعفا. ويهم بالخروج واذا به يرى كارلو يدخل بين جنديين وقد اعلن أن الكابتن كارلو مطلق السراح . يفرح بذلك ريزور ولكن كارلو يقول ولماذا أنا دون باقى الرفاق ؟ فيخبرونه أن الدوق قد أمر بذلك تبعا لأمر ابنته، فيرفض أن يطلق سراحه ويفضل أن يموت مع زملائه فيرده الكونت ريزور ويرجوه أن يطيع الأمر ويخرج فيقول له :

بحق السماء ... دعنى أموت ... دع الجلاد ينتقم لك منى ...

وإن كنت لا أريد انتقام الجلاد ؟

تمنحنى عفوك ... دون أن أستحقه ... كلا

واذا كانت غلطتك كما قلت قد ملكتنى حياتك ... فانى أملك حق العفو عنها . اذن هى ملكى ... ولست أرجو منك أن تعيش ... بل آمرك . ولتكن آخر يد اصافحها يد صديق ... عزيز على ... قد وجدته بعد أن كدت أفقده ... وقد طهرته دموع التوبة .

فيضغط كارلو على يد الكونت و يتبلها بينما الكونت يقول : ابق ياعزيزى كارلو لتخدم قضيتنا المقدسة ... التى هى الآن أحوج ما تكون لاخلاصك ... ليكن حب الوطن من الآن شاغلك الوحيد ... هذا الحب الذى جمع بين رجلين كان قد فرق بينهما عداء قاتل ... أنت لا تزال شابا، وسترى علم الوطن يرفرف فوق أسوارنا فتذكر زميلك الذى حارب الى جانبك. فقط أريد منك شيئا واحدا أن تحمل عنى واجبا مقدسا . وهو أن تبحث عمن خاننا وتاجر

بوطنه . وعندما تقبض عليه كائنا من كان اضربه ، اضربه دون ما شفقة ولا رحمة ... اقسم بالله . فيقسم . فيكرر عليه : كائنا من كان . فيردد : كائنا من كان . فيقول الكونت : أرأيت كيف أنا محق فى الإبقاء على حياتك ... ويتصافحان بعضهما ويخرج الكونت بصحبة الضابط وبعد برهة يرجع الضابط وحده و يقول لقد اعترف الكونت... فيسأله كارلو لهفة : ماذا قال؟ فيقول قالها كلمة واحدة «الوطن» واغمد هذا الخنجر فى قلبه ومات . فيشحب لون كارلو ويلجم الحزن لسانه ويستأذن الضابط فى أخذ الخنجر الذى قتل به صديقه فيعطونه اياه . و يأخذه ويخرج .

وفى الفصل الاخير نرى دولوريس تجلس بجوار النافذة بينما يدخل كارلو فتهش للقاه وتفرح بمرآه وتتنازل فيه . فيلومها على قولها هذا فى مثل هذه الظروف و يخبرها بموت زوجها فتألم قليلا ثم لا تلبث أن ترجع إلى جنونها بكارلو . فيقول لها : ألا تنصتين إلى حدث الحارق فى الشوارع ؟ فلا تأبه بذلك . وتقول له : وما دا فى ذلك تعال إلى جانبى . فيقول لها : إن على واجبا وعدت به ارامل وهو أن أنتقل من حانتنا . تضحك وتقول له أنت تقترف جريمة القتل عمدا ... لا أنا لا أصدق ... لا تفكر إلا فى أنا ... هيا نذهب من هنا وعندى جواز سفرى وعندك جواز سفرك ، وقد أخذت جوازى فى قصر الحاكم هذا الصباح . فيتراجع صائحا : يا الهى أنت ... أنت من أضاعنا ... هى أنت ... أيتها المخلوقة اللعينة ... يا الهى المنتقم أبحث عنها وهى أمامى ؟ ويسحبها الى النافذة ليريها فعلتها الشنيعة ... و يقول لها : انظرى إلى محرقتك الملتهبة ... عدى ضحاياك ... تعودى حر اللهيب... اسمعى لقد رأونى انهم يقولون ... كارلو الخائن ... الخائن ... اسمعى صوت المائت يصيح بى لا تنس القسم اضرب أيا كان المجرم... ويهجم عليها و يغمد فى صدرها الخنجر بينما هى تولول بجنون وفزع ، وتقع وهى تهتف باسمه .. وتدعوه أن يموت معها... فيقول لها... سألحق بك ... انتظرينى... أنا ذاهب ... (ويعتلى النافذة و يصيح فى الشارع) أيها الجلاد ينقصك واحد من ضحاياك ... افسح مكانا فى محرقتك ... افسح لى مكانا بينهم (و يقفز من النافذة الى الساحة) بينما تسلم دولوريس أنفاسها الأخيرة .

سمـــير

تم طبع هذه المجلة بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٦٢
(٢٧ مارس سنة ١٩٤٣) .
مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى

نمرة ٢٣٥٩ ا ٣-١٩٤٣-٣٥٠٠